

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأَوَندَ

برنامج هل تعرفني؟



ابن الرومي

- لوحة منتزعة من صميم الواقع. فيها حرارة التجربة الحية ولمسات الأحداث والمشاعر في وضوح قلّما عرف في لوحة من لوحات التاريخ العربي. إنها فصل من قصة طويلة هي قصة التاريخ الذي شاركت في صنعه كلمات العمالقة من الأدباء..

ضربة موسيقية.....

- هذه اللوحة هي أنا ولن أبادر إلى تعريفكم بنفسي! بل سأترك لشريط الأحداث المصوّرة بكلمات هذه الحلقة مهمّة التعريف بي.

- كنت دقيق البنية، ولكنني صلب نحيف. في وجهي قبح شديد. اشتهرت بارتداء الملابس القذرة، وكانت هيئتي توحى بأنني شخص خامل. ألبس العمامة والدراعة، وهي أشبه بالجبة، غير أنّ طرفيها الأماميين مخيطان على منتصف الصدر تقريباً. ولم تكن العمامة زيّ أهل طبقتي في العصر الذي عشت فيه، وكثيراً ما اضطررت إلى الردّ على من حمل عليّ بسبب هذه العمامة متعلّلاً بصلعي تارة وبسواه تارة أخرى.

ضربة موسيقية...

- من أوصافي النفسية شدّة التغيّر، وسرعة الانقلاب، وضيق الصدر، وقلة الصبر، والمغالاة في التطيّر، والتخوّف العظيم، والتحمّس الكثير، فأنا دائماً في حالة دعر شديد.

- كان في وسع أيّ من الناس أن يشلّ يومي كله بكلمة سوء يطالعي بها عند الصباح فأغلق الباب على نفسي ثم لا أخرج أبداً حتى صباح اليوم التالي..

- أغلقت باب بيتي ذات مرة على هذا النحو ثلاثة أيام. ولا أنسى أن أخبركم بأنّ الأخفش، وقد كان من كبار العلماء في عصري، قد سامني العذاب ألواناً باتخاذ الأسماء التي يطالعي بها كلّما واجهني والتي اعتبرها مجلبة للشؤم والنحس.

ضربة موسيقية...

- ولدت في بغداد عام 221 هـ - 836م على أصح الأقوال وكنت مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور. واختلف الناس في نسبي ولكنّ الثابت أنّ جدّي لم يكن عربي النسب. وقد سرّني أن أستغلّ الغموض في نسبي فانتسبت على سبيل المباهاة إلى الملوك من الروم وقلت في هذا المعنى:

وبعد فإنّي في مشمخر عصائب رأسه قطع الضباب
أحلّتيه آباء كرام بتيجان الملوك ذوو اغتصاب

وقد قضيت طفولتي وشبابي في بغداد ولم أطف بعد ذلك إلا في أمكنة قليلة. لقد بلغت في تطواني كلاً من مدينة سامراء والبصرة وما بينهما ولم أغادر أرض العراق أبداً حتى جاءني الموت عام 284 هـ في أرجح الأقوال:

وإن أنس لا أنسى مراتع الطفولة والشباب في بغداد فقد لبست في هذه المدينة ألوان العيش وهو جديد. قلت فيها:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست فيه العيش وهو جديد
ضربة موسيقية.....

- من أساتذتي محمد بن حبيب البغدادي المتوفي عام 245هـ في سامراء. ومن الشعراء المعاصرين لي البحثري، من أكبر سادات الكلمة العربية، وكذلك أبو تمام. أما الشعراء الذين عرفتهم ورويت بعض أشعارهم فمنهم: امرؤ القيس والنابعة الذبياني ولييد وزهير بن أبي سلمى والأخطل والفرزدق وجريز والبعيث وأبو نواس ودعبل.

- ولم اكن أخفي إعجابي الكبير بشعر الحسين بن الضحاك.

- أما ثقافتني التاريخية فلم تكن ذات شأن يذكر ولكنني استوعبت عدداً كبيراً من الحوادث وعرفت الكثير من الأسماء التي تتردد في صحائف التاريخ. ولم تكن تغيب عن ذاكرتي أسماء عدد كبير من البلدان المنتشرة بين الصين وطنجة وحتى بلاد الفرنجة.

- كما تتبعت مواطن الجمال في الطبيعة وحيواناتها وطيورها ثم وصفت بعض لوحاتها الحلوة وألحقت بهذا الوصف صيد الغزال والثور وطيور الماء.

ضربة موسيقية.....

- أعتقد أنني لم أعرف بنفسني بعد تماماً. ولذلك فإنني أضيف إلى ما سبق تعلّقي بموضوع الهجاء. فما أذكر أنني أعفيت أحداً من هجائي. لقد هجوت الكبير والصغير، والبعيد والقريب، والملوك والوزراء

والسوقة من الناس. وكان في هجائي كثير من السخرية والعبث أصوّر به ضحيتي تصويراً يثير الضحك حتى لتبدو الضحية أشبه بالصورة الكاريكاتورية التي يعرفها ناس القرن العشرين.

- ولا أنسى هجائي للعباسيين بخاصة، فقد شتمتهم شتماً شديداً بعد أن لم يستجيبوا لندائي في منحي هبة سخية. فقلت ذلك وأنا في أواخر العقد الثالث من عمري. لقد اتهمتهم بكلّ شائنة وأصقّت بهم من العيوب ما أتورّع عن ذكره في هذه الحلقة من البرنامج.

ضربة موسيقية.....

- والحقيقة أنّه لم تنعقد بيني وبين الخلفاء العباسيين أية صلة مباشرة على كثرة من عاصرت منهم. ولكنني اتّصلت بعدد غير قليل من الناس. منهم الوزراء ورؤساء الدواوين وكبار الموظفين، ومنهم من هو دون ذلك، حتى بلغت السوقة وصغار التجار والأسقاط من البشر.

- وكلّهم مدحت. وكلّهم هجوت. ومنهم كلّهم طلبت العون. وكنّْتُ أكتفي بالقليل. بكمية من القمح أو الشعير أو قدر من القطن أو بأكلة معينة أو بقدر من السمك. ومع ذلك فلم اكن أحظى بهذا القليل إلا بعد الجهد العسير والانتظار الطويل.

- من أجل ذلك هجوت بعد الانتظار وتوجيه العتاب اللطيف. وكان هجائي مقدعاً لا هوادة فيه ولا هون. كنت إذا مدحت بالغت وقلت في مدحي ما ليس فيه، وإذا هجوت بالغت أكثر فأكثر فمزّقت سمعته وتناولت عرضه ونسبتُ إليه كلّ نقيصة..

- وقد تعجبون من تصرّفي هذا! والحقيقة أنّه تصرّف عجيب. ولكن ما حيلتي في ذلك؟ هكذا خلّقت. كان شبح الخوف من الجوع يلاحقني. وكان حبي للدنيا يضغط عليّ. وكانت وسائلتي أقصر من أن تحقّق لي ما أرغب فيه من الغنى والقوة.

ضربة موسيقية.....

- الطاهريّون في بغداد، وهم من طبقة الوزراء والأمراء والولاة، عرفتهم بين أول من عرفت من كبار القوم. وقد حاولت أن التحق بحاشيتهم ولكنني لم أوفّق إلى ذلك. ربما لما كنت أتزيّن به من زيّ خامل. أو ربما كان ذلك لسرعة تغيّري على الناس أو لشدّة تطيّري وتشاؤمي. وقد هجوت عدداً من هؤلاء الطاهريّين كما مدحتهم أيضاً. ويتعاقب المدح والذم بتعاقب البسط والقبض في أيديهم. والحق أنّي كنت في دخيلة نفسي معجباً ببعضهم ولا سيما عبید الله بن عبد الله بن طاهر الذي استمرت علاقتي به في مد وجزر طيلة ثلاثين سنة. كنت أحب هذا الأمير وأحترمه. مدحته بالشجاعة والكرم والعلم والذكاء وتقوية الخلافة وتنظيم أمور الطاهريّين وتطهير بغداد. بل إنني قرظت شعراً له حين قلت له:

ولو شئتَ ساجلتَ البحورَ غزارةً

وبادهتَ قرصَ الشعرِ جِنَّةَ عبقرا

ضربة موسيقية.....

- على أنني لم أقف عند باب الطاهريين وحسب، بل قصدت وزيراً للمعتز في سامراء بين 253هـ - 255 هـ هو أحمد بن إسرائيل. ولكن أحمد هذا قد ماطلني في العطاء ولم يصدق في معاملتي.
- ثم انتقلت إلى صاعد بن مخلد وابن بلبل وإبراهيم بن المدبر وعلي بن يحيى المنجم، وحاولت بين فترة وأخرى أن أقفز إلى سرير بعض الخلفاء ولكنني لم أفلح. فعلت ذلك في أيام المستعين والمعتمد والموفق.
- ولا أنسى بني نونجت وعلي رأسهم أبو سهل مؤسس العائلة وصانع أمجادها. فقد كان هذا الأمير رجل علم ممتازاً في علم الكلام والكتابة. وجاءني من نوال هذه العائلة ما استحقت معه المدح والثناء.
- وربما رغبتم في الاستماع إلى بعض قصيدي الذي أمدح فيه وأهجو رجلاً من هؤلاء الناس. فاسمعوا ما قلته مدحاً وعتاباً وهجاءً لوزير منهم هو ابن بلبل:
- قلت في المدح :

ملأت يدي جدوى وقلبي مودة تدققن في المحتدين وفي الصدر

أنلت نوالاً لو سواك أناله لآيسني من عودة آخر الدهر

لأنك أعطيت الجزيل وإنما يرجي المرجي عودة النائل النزر

وقلت في العتاب وقد ردني بؤابه أكثر من مرة عن الدخول إليه في ديوانه:

كم نسام الأذى كأنك كلاب كم إلى كم يكون هذا العتاب

كلما جئتُ قاصداً لسلام ردني عن لقاءك البواب

ثم قلت في الهجاء وهو في السجن بعد سقوطه من الوزارة:

كأني به في محبس وثيابه من العمر والنعماء والعز أسمال

غلائله الأمساح يأكلن جلده وجليته أقياد سخط وأغلال

ولو شئتم أن أحدثكم حديث القوم الذين عرفتهم لاحتجتُ إلى ساعات وساعات، ولكنني أقول لكم إنَّ الفترة التاريخية التي عشتها كانت تتميز بالصخب والاضطرابات والعنف وتعاقب الحكام والوزراء وتساقط الملوك كما

لم يعرف تاريخ العباسيين مثل ذلك من قبل. يكفي أن أذكر كلاً من ثورة الزنج التي استمرت 14 عاماً ثم ظهور حكومة الصفاريين التي تحطم بها حكم الطاهريين..

ولا أنسى آل وهب، وهم من كبار الوزراء والحكام، عرفت نواهم وأدركت أيامهم ومنحتهم من مدحي ما خلّدهم في التاريخ..

ضربة موسيقية.....

- يبقى أن أحدثكم حديث النساء في حياتي، ثم أعقب عليه بلمحات أخرى في موضوعات شعرية مختلفة.

- الواقع أنني عرفت الكثير من النساء. ولكنّ غزلي بهن لا يبلغ ربع الغزل عند أبي نواس، إلا أنني أحببتهنّ حباً شديداً.. كما أنني هجوتُ بعضهنّ أو تفكّكت معهنّ ببعض المقطوعات الشعرية القصيرة.

- من هؤلاء اللواتي فاكتهنّ في الشعر جارية تدعى قسطنطينة وهي التي كانت مع الجارية ظلوم أمتين عند من تُدعى أم حبيب كما جاء في كلام للجاحظ..

- وقسطنطينة من فئمة الجوّاري اللواتي يبرزن للرجال فيبادلنهم الحديث والسمر.. ومن المغنيات العازفات الجارية التركية عجائب ثم جلنار وهي راقصة على الطبل والصنج أيضاً. وغنّاء ودبسية وبدعة وبستان ودريرة الفاتنة التي لم أتورّع عن سبّها سبّاً مقزّعاً.. وجارية سوداء لا أحبّ ذكر اسمها فقد كانت حبيبة إليّ، ثم شاجي وشنطف وغيرهن.

- ولا أنسى الجارية وحيد ذات الصوت الذهبي الرائع..
ضربة موسيقية..

- وهل تعلمون أنني أهُمّتُ بالزندقة عند القاضي يوسف. وأنتي دافعت عن نفسي أمامه وتغلّبت على خصومي؟ لقد قلت في دفاعي:

يشهد الله أنّ ديني دين يرتضيه شهادة ومغيبا

لم أعاند به الطريق ولا أضحى لِدِينِ المعاندين نسيبا.

ولا أخفي عليكم أنني قد استهترتُ بالشعائر الدينية فشربتُ الخمر وسألت بعض الممدوحين أن يهيني خمرا. كما بالغت كاذباً في تقديس بعض الممدوحين حتى أنني قلت له: أنه لو عاش في عصر النبي عليه السلام لأوحى الله بمدحه في القرآن..

ضربة موسيقية....

- ولكن أقدم إليكم نفسي أكثر فأكثر أخبركم أنّ الناس من بعدي قد تشاءموا من تحقيق شعري وجمعه ونشره. وراحت أساطير وحكايات مكذوبة حول شرور مزعومة أصابت من حاول القيام بهذه المهمة.
- أما شعري فغزير جداً. وهو لم يطبع كلّه حتى اليوم. ولم يترك شاعراً قبلي أو بعدي مثل الذي تركت منه.

- أما الموضوعات التي طرقتها فهي:

- المدح والهجاء ووصف الطبيعة، وهو دون ما يقوله المستشرقون عنه، والغزل بالنساء والغلمان ثمّ المجون الشديد وقليل من الرثاء لم يصدق منه غير رثائي لولدي الأوسط محمد. أما لغتي فهي من البساطة والوضوح بحيث أنّها تشبه لغة العرب في القرن العشرين. وقد اتفق النقاد القدماء وسأكتفي بإيراد قول الناقد ابن رشيّق. قال: "وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر، لكثرة اختراعه وحسن افتنانه، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به فصار يقال: أهجى من ابن الرومي، ومن أكثر من شيء عرف به. وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر، ولكن قليل الشر كثير..."

- وبعد هل عرفتموني؟

- فإن لم تكونوا قد عرفتموني بعد فأنا أبو العباس علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي...